المطلب الثالث
مقومات المنهج الناجح والمنهج الاشتراكي في العالم الإسلامي

في المطلب الأول من هذا المبحث توصلنا إلى وجود شروط موضوعية يستلزم الأمر توفرها للمنهج المستخدم إطاراً لتحقيق التنمية الاقتصادية كي يكتب له النجاح في مهمته، وقمنا في المطلب الثاني منه بالتعرف على مدى إمكانية تحقق هذه الشروط للمنهج الرأسمالي، وفى هذا المطلب نتعرف على مدى إمكانية تحقق هذه الشروط للمنهج الاشتراكي المعروض كبديل للمنهج الرأسمالي، ومنافس له على ساحة الفكر الإنمائي في العالم الإسلامي. وسيقوم هذا المطلب بمهمته في فروع ثلاثة هي:

الفرع الأول: مدى توافق المنهج الاشتراكي مع البيئة الإسلامية

الفرع الثاني: مدى قدرة المنهج الاشتراكي على استثارة همم الجماهير المسلمة

الفرع الثالث: مدى الرغبة في تكرار التجربة الروسية في التنمية

۞ ۞ ۞ ۞

الفرع الأول: مدى توافق المنهج الاشتراكي مع البيئة الإسلامية

لقد تعرفنا على المجتمع الإسلامي في المطلب السابق ورأينا أنه مجتمع لم ينشأ نشوءاً ذاتياً وفق تصورات بشرية أرضية، وإنما هو مجتمع أخرج إخراجاً بواسطة شريعة سماوية تنبثق عن عقيدة الإسلام جعلت للمجتمع الإسلامي تصوراً خاصاً عن الكون والحياة والإنسان[1].

أما المنهج الاشتراكي فهو نتاج البيئة الأوروبية ذات الإرث الروماني الإغريقي التي حددنا سماتها من قبل، فهو يشارك المنهج الرأسمالي النزوع عن مشرب واحد. يقول «آرنولد توينبى» إن الشيوعية ـ وهى هرطقة ـ غربية اتبعتها روسيا ما هي إلا جزء لا يتجزأ من التراث اليهودي اليوناني مثل الأسلوب

(١) انظر الفرع الأول من المطلب الثاني من هذا المبحث.

الغربي للحياة سواء بسواء»[١]. غير أنه لا يكتفي بإنكار أثر الدين والأخلاق في النواحي الاقتصادية كما يفعل المنهج الرأسمالي. وإنما يجعل من مهمته محاربة الدين والقضاء عليه، إذ أنه في نظره «مخدر للشعوب» وأداة تستغله البرجوازية في إلهاء الطبقة العاملة عن واقعها السيئ، وتعويق لها عن القيام بدورها الطليعي والحتمي في النضال ضد الرأسمالية.

فالاشتراكية هي الامتداد الطبيعي للفكرة المادية عن الحياة، تلك الفكرة التي اعتنقها العالم الغربي منذ قيامه على الإرث الروماني، والتي ازدادت حدة منذ أيام «فرانسيس بيكون» إلى الطريقة المادية التجريبية التي لا تؤمن إلا بما يقع تحت الحواس أو تثبته تجارب المعمل، وهى امتداد لقدرة الحواس.

والاختلاف بين الفكرة الاشتراكية والفكرة الغربية عن الحياة، ليس اختلاف في طبيعة التفكير، وإنما هو اختلاف في مدى التفكير، فالفكرة المادية عن الحياة واحدة ولكن الفرق هو في حرية الاستثمار المطلقة في المنهج الرأسمالي والمنعدمة في المنهج الماركسي، ولو شئنا الدقة لما قلنا بفكرة غربية عن الحياة وفكرة اشتراكية عنها. فالفكرة الاشتراكية هي فكرة غربية بمعنى أن الاشتراكية هي قمة الفكرة المادية الغربية عن الحياة وبناء عليها. «إن الشيوعية هي الخطوة الأخيرة والنهائية في خط سير الحضارة المادية وهى تعترف بأنها الحلقة الأخيرة من حلقات «المادية الجدلية»[٢].

وعلى حد تعبير المؤرخ الكبير «أرنولد توينبى» الشيوعية سلاح من أصل غربي مثل القنابل والطائرات والمدافع فلو لم يخترعه غربيان عاشا في القرن التاسع عشر هما «كارل ماركس وفردريك إنجلز»، اللذان تربيا في إقليم نهر الراين وقضيا أحسن جزء من حياتهما العاملة في مدينة لندن، ثم بعد ذلك في مانشستر، لما أصبحت الشيوعية مذهب روسيا السياسي، ذلك أنه لم يكن في التقاليد الروسية ما يمكن أن يؤدى بالروس إلى اختراع الشيوعية بأنفسهم، ومن

(1) Toynbee, A. : The World and The West, op. cit., P.47.

(٢) سيد قطب، نحو مجتمع إسلامي، مرجع سابق ص٣١.

المؤكد أنهم ما كانوا قط يحلمون بهذا السلاح لو لم يكن موجوداً في الغرب معدا لأن يطبقه النظام الروسي الثوري في عام ١٩١٧م[١].

إذا فالفكرة الاشتراكية تشارك الفكرة الرأسمالية في ماديتها وتزيد عليها في الاصطدام الصريح بفكرة المجتمع الإسلامي عن الكون والحياة والإنسان، حيث تنفى المادية الجدلية كل مؤثر في حياة البشر والكون كله، يكون خارجيا عن الطبيعة المادية لهذا الكون، كما أنها تنفي عن الإنسان نفسه أن يكون له دور في تطوير الحياة ونظمها وقوانينها وعلاقاتها الاجتماعية، وتكل هذه المهمة لأدوات الإنتاج. فطبقاً للماركسية فإن كل التغيرات والتحولات الأساسية يجب البحث عن أسبابها لا في عقول الناس أو سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين، وإنما في التغيرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل[٢].

ومن ثم فإن المنهج الاشتراكي يصطدم مع فكرة الإسلام من أساسها، في عقيدته عن الله سبحانه وتعالى، وفى مفهومه عن الكون وعن الحياة وعن الإنسان، ذلك الإنسان الذي يعترف به الإسلام خليفة لله في أرضه، ويجعل له الدور الأساسي في كل ما ينشأ على وجهها من تغيرات، لا لأسلوب الإنتاج والتبادل.

وإذا كان المنهج الاشتراكي يصطدم مع الأسس الجوهرية للمجتمع الإسلامي والبيئة الإسلامية، فإنه لن يستطيع النجاح في تحقيق التنمية الاقتصادية في هذه البيئة حيث إنه يفقد أول الشروط التي حددناها للمنهج الناجح ألا وهو توافقه مع البيئة التي ينميها. ذلك الشرط الذي توفر للمنهج الرأسمالي في غرب أوروبا، وللمنهج الاشتراكي في شرقها، حيث إن كليهما منهج مادي أتيح له أن يتعامل مع بيئة مادية فكتب له النجاح، وهذا التوافق يفقدانه في البيئة والمجتمعات الإسلامية.

(1) Toynbee, A.: The World and The West, op. cit., p.16.

(٢) ليونتيف- الموجز في الاقتصاد السياسي، ترجمة أبو بكر يوسف، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧م، ص ص١٢-١٣.

الفرع الثاني: مدى قدرة المنهج الاشتراكي على استثارة همم الجماهير الإسلامية وتوظيف طاقاتها لصالح التنمية

تبين لنا مما سبق أن الجماهير المسلمة إنما يحركها نحو العمل المادي على الأرض إعطاء هذا العمل صفة الواجب ومفهوم العبادة والتكليف الشرعي، وفى هذه الحالة يكون المسلم أوفر عطاء وأسرع استجابة. ورأينا كذلك أن المنهج الرأسمالي بماديته يعجز عن اكتساب ثقة المسلم، لأنه لا يملك هذه الخاصية، فما هو موقف المنهج الاشتراكي بهذا الخصوص؟ وهل يملك من القيم والحوافز ما يحرك الجماهير المسلمة والتي بينا الطريق الأمثل لاكتساب تعاونها؟

إن المنهج الاشتراكي يطلب من الجماهير البذل والتضحية من أجل جنة يعدهم بها على هذا الجانب من القبر. على حد تعبير «شومبيتر»[1] «جنة البروليتاريا على الأرض»، وكأن هذا المنهج يرى أن ما عليه الرأسماليون الاحتكاريون من أوضاع يمثل «جنة» فهو يعد بأن يسلبهم إياها، ويدخل فيها «البروليتاريا» فهل هذه الفكرة تحرك من رأس المسلم شعرة؟ أو تلقى منه نوعا من الاستجابة؟ إن المسلم الذي شجب المادية الرأسمالية كما تبين لنا في الفرع السابق ـ لهو أشد شجبا لقمة المادية الغربية ممثلة في المنهج الاشتراكي.

وإذا كان أنصار هذا المنهج يأملون في القضاء على العقيدة الإسلامية، فإن ذلك لا ينفى آثارها الكامنة في التكوين النفسي للأمة على مدى ١٤ قرناً، كما أن القضاء على العقيدة الدينية لا يعنى إيجاد الأرضية المناسبة لترعرع الماركسية، فليس نفى هذه إثباتا لتلك.

إن محاولات فرض نوع من الاشتراكية على المجتمعات الإسلامية، لا يبدو عليها أدنى إثارة من نجاح، بل إن تحول مجتمع مسلم إليها يظهر دائماً على أنه بداية لفترة من عدم الاستقرار، يدخل فيها الحكم صراعاً مع الشعب لا ينتهي إلا بإخفاق الحكم وضياع فرص التنمية فترة بعد فترة. ذلك «أن محاولة فرض نظام اجتماعي على مجتمع معين إما بقوة من الداخل أو من الخارج، هذه المحاولة

---

(١) انظر جوزيف شومبيتر، عشرة اقتصاديون عظام، مرجع سابق، ص١١.

ليست طبيعية، ولو أتيحت للمجتمع الحرية في التصرف لألغى الكثير مما فرض عليه بالقهر والإكراه، ولعل هذه الملاحظة تفسر السبب الذي من أجله أخفقت تجارب اجتماعية في تحقيق ما كان معقوداً عليها من آمال، لأنها نقلت إلى مجتمع وطبقت فيه دون أن تكون البيئة فيه صالحة أو مهيئة»[١].

إن النمو الاقتصادي «إنما يتحقق عندما يكون السكان في بلد من البلدان على استعداد للعمل الشاق وإنفاق الوقت في إنتاج السلع الاستثمارية من آلات ومصانع وسدود، وهى السلع التي ستضاعف من كمية الإنتاج في سنوات مقبلة[٢]. ولن يكون السكان بهذه الصفة إلا إذا كان المنهج المطبق يلقى منهم القبول والرضا، وليس المنهج الاشتراكي بالذي تتوفر له هذه الصفات؛ بل إنه يلقى من الجماهير المسلمة الرفض والكراهية، فهو أكثر عجزاً ــ من المنهج الرأسمالي ـ عن تحريك واستثارة همم الجماهير المسلمة، إذ أن مبادئه تصطدم مباشرة بالعقيدة الإسلامية، بينما الاصطدام بين الإسلام والرأسمالية بطريق غير مباشر، فموقف الإسلام الذي بيناه من الكون والحياة والإنسان يتصادم بصورة أكثر وضوحاً مع موقف الاشتراكية منها أكثر من تصادمه مع الموقف الرأسمالي. ذلك أن الموقف الاشتراكي ـ كما بينا ـ هو قمة الاتجاه الرأسمالي في نفس الخط والاتجاه.

۞ ۞ ۞ ۞

الفرع الثالث: مدى الرغبة في تكرار التجربة الروسية في التنمية

نتساءل هل الشعب المسلم يرغب في تكرار التجربة الروسية في التنمية الاقتصادية؟

على الرغم من أن الإجابة على هذا السؤال تتطلب مواجهة الجماهير المسلمة لمعرفة رغبتها، إلا أنه بإمكاننا أن نحكم على اتجاهات هذه الجماهير من

---

(١) د/ راشد البراوى، القرآن والنظم الاجتماعية المعاصرة، دار النهضة العربية، القاهرة، بدون رقم عام ١٩٧٥، ص٢٨.

(٢) روبرت ثيوبالد، الأغنياء والفقراء، الدار القومية للطباعة والنشر، عدد ١٠٢ من اخترنا لك، ص١٢.

ردود أفعالها إزاء الوقائع ذات الصلة القريبة بهذا الموضوع، ونظرة سريعة على شعور الراحة الذي بدا على الجماهير الإسلامية في مصر يوم أن استخلصت نفسها من براثن الدب الروسي فطردت قواته المحتلة في شكل خبراء، ويوم أن ألغت المعاهدة التي كانت تربط حكامها بالمعسكر الشيوعي ـ وإن لم تربط الشعب المصري يوماً ـ نظرة سريعة إلى مشاعر الشعب المسلم عقب هذه الأحداث تكفى للحكم على رغبة الجماهير الإسلامية في السير على خطى التنمية الروسية من عدمها، كما أن حرص حكام الشعوب الإسلامية على إخفاء اتجاهاتهم الماركسية وبذل الجهد في سبيل إقناع الجماهير بأن اشتراكيتهم عربية وليست ماركسية يعطى نفس المغزى، كما أن متابعة الجهود البطولية التي يبذلها الشعب الأفغاني المسلم في مقاومة المنهج الاشتراكي الذي يحاول الاتحاد السوفيتي بواسطة عملائه فرضه على هذا المجتمع المسلم لتكفى دليلاً على موقف الشعب المسلم والعالم الإسلامي من هذا المنهج الاشتراكي الماركسي.

ومن وجهة عملية، فإنه إذا كانت التجربة الروسية ترتب عليها استخدام أساليب بالغة القسوة والوحشية مع جماهير العمال والفلاحين إلى حد أنه يقدر أن «ستالين» في سبيل فرض المزارع الجماعية قد أعدم أو وضع في معسكرات العمل خمسة ملايين من «الكولاك» ـ الفلاحين الأغنياء ـ واتبع مع عمال المدن سياسة عديمة الرحمة، وسمح بتدهور أحوال معيشتهم إلى مستوى منخفض جدًّا، فكان تاريخ هذه الفترة من التصنيع الإجباري ـ كما يقول «هيلبرونر»، تاريخاً بشعاً ويبعث على النفور وخلف آثار جراح مستمرة في المجتمع الروسي»[1]. فهل ترغب المجتمعات الإسلامية في تحقيق التقدم المادي بهذا الثمن؟ وهل تبرر الديمقراطية التي يتشدق بها الجميع في الشرق والغرب، الموقف الذي تتخذه حفنة تقفز بليل، فتستولي على مقدرات شعب وتسوقه نحو التقدم المادي، الذي لا يتمتع بثماره إلا حفنة من الشعب يضمها «الحزب القائد»؟

---

(١) هيلبرونر، كيف نصنع المجتمع الاقتصادي لتحقيق التنمية، مرجع سابق، ص٣٦٧.

هل يقبل الحس الإسلامي أن يقتل إنسان حرمته عند الله تعالى أعظم من حرمة الكعبة، من أجل معارضته الاستيلاء على أمواله؟

لا نعتقد أن التجربة الروسية بكل ما فيها من سلبيات وإيجابيات، مقبولة لدى الجماهير المسلمة أو غير المسلمة، وهى ليست لها إلا وسيلة واحدة هي أن تفرض بالقوة، وحتى اليوم فليس هناك مجتمع قبل الشيوعية كمنهج إنمائي بطريق ديمقراطي. والخلاصة أن المنهج الاشتراكي في التنمية لا تتوافر له مقومات النجاح في العالم الإسلامي، فهو لا يتوافق مع البيئة الإسلامية، وهو غير قادر على جذب اهتمامات الجماهير وتحقيق مشاركتها في جهود التنمية، كما أن وسيلة تحقيقه غير مرغوب فيها من الجماهير، ومن ثم فإن تطبيقه لتحقيق التنمية في العالم الإسلامي، لن يؤدى إلى أية نتائج إيجابية، وإنما يمكن أن يؤدى إلى أسوأ النتائج. وأقلها فشل التنمية وما يترتب على ذلك من ضياع الفرصة السانحة لتحقيقها، إذا أحسن اختيار المنهج الذي يملك مقومات النجاح وهى:

١- التوافق بين المنهج المطبق والبيئة الإسلامية.

٢- قدرة المنهج على استثارة همم الجماهير وتحقيق مشاركتها وتوظيف طاقاتها لصالح التنمية.

٣- المرونة أمام الظروف المتغيرة.

۞ ۞ ۞ ۞